وحجبت عن الأخلاق ونفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها) (١) .

ويبين السهروردي منزلة الرياضة عند الصوفية ومكانتها وأثرها على قلب الصوفي حيث يقول (فالعباد أجابت نفوسهم إلى الأعمال لأنهم يسلكون بنور الإسلام والزهاد أجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لكونهم سلكوا بنور الإيمان والصوفية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان . فلما باشر بواطن أهل القرب والصوفية نور اليقين وتأصل في بواطنهم ذلك اتصل القلب بكل أرجائه وجوانبه لأن القلب يبيض بعضه بنور الإسلام وبعضه بنور الإيمان وكله بنور الإحسان واليقين)(٢) .

فالرياضة أهم وسيلة من وسائل التربية لدى الصوفية وهي عن طريق ملازمة شيخ من المشايخ للتأدب بأدبه والتدريب العملي على يديه من أهم الأمور التي اعتنوا بها(٣) وهذا بعينه هو الهدف الأساسي للتربية ومطمعها الاسمي حيث تهدف إلى تهذيب النفس وإكمالها وتنميتها على أكمل وجه ممكن .

خامساً : التزكية :

كلمة تزكية من زكا يزكو وذكاء وزكوا وزكاة : نما وزاد وأزكاه أصلحه وطهره والذكاء هي البركة والنماء والطهارة والصلاح وصفوة الشيء(٤) .

ولقد جاء لفظ زكى ومشتقاته في القرآن الكريم كثيراً فجاء مرادفاً للتربية عموماً كما في قوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ البقرة : ١٥١ .

---

(١) عوارف المعارف للإمام شهاب الدين عمر السهروردي جـ٢ ، ص ٦٢ تحقيق الدكتور عبدا لحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف : دار المعارف بدون تاريخ .
(٢) السابق جـ ٢ ، ص ٦٢ .
(٣) انظر على سبيل المثال المرجع السابق ص ٦٥ وما بعدها ، أيها الولد للغزالي ص ١٣٤ .
(٤) لسان العرب جـ ٧ ، ص٤٦ .

يرى ابن كثير أن الله تعالى – يذكر عباده المؤمنين بما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد (ﷺ) ليبين لهم آيات الله ويزكيهم – يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلمهم القرآن والسنة النبوية ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون : ثم يوضح الأثر التربوي الذي نتج عن بعثة الرسول وما أحدثه فيهم عن طريق تغيير سلوكهم وطباعهم فيقول (فانتقلوا ببركة رسولهم وبمن سفارته إلى حال الأولياء وسجايا العلماء فصاروا أعمق الناس علماً وأبرهم قلوباً وأقلهم تكلفا وأصدقهم لهجة)(١) .

كما جاء اللفظ أيضاً في القرآن وفي نفس السورة بمعنى التربية وذلك في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ البقرة : ١٢٩ كما جاءت الكلمة في القرآن بمعنى تربية النفس وتهذيبها : كما في قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ الشمس : ٩ .

فالتزكية كلمة قرآنية ومصطلح صوفي استعمل مرادفاً للتربية بصفة عامة وللتربية الخلقية منها على وجه الخصوص بما تشمله من تطهير الإنسان وتهذيبه من الرذائل ودنس النفوس ولذا جاءت كلمة التزكية في القرآن كثيراً ملازمة لكلمة يعلمهم وقد تتقدمها وقد تتأخر عنها بما يوضح عناية القرآن بالتربية والتعليم وأنهما أمران متلازمان وأنه لا غناء لإحداهما عن الأخر ولا يقوم مقامه، وكأن الله يعلمنا بهذا التلازم أن التربية بدون تعليم ناقصة وأن التعليم بدون تربية لا فائدة منه : يقول الإمام محمد عبده عند تفسير للآية ١٢٩ من سورة البقرة ما نصه (علم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن تعليم الكتاب والحكمة لا يكفي في إصلاح الأمم وإسعادها بل لابد أن يقرن التعليم بالتربية على الفضائل والعمل على الأعمال الصالحة بحسن الأسوة والسياسة فقال (ويزكيهم) أي يطهر نفوسهم من الأخلاق الذميمة وينزع منها كل العادات الرديئة ويعودها الأعمال الحسنة التي تطبع في النفوس ملكات الخير ويبغض إليها الأعمال القبيحة التي تغريها بالشر(٢) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ، جـ١ ، ص٢٥٣ ، المكتبة التوفيقية.

(١) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ، جـ ٤ ، ص ٣٠٠ ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٩٣ ، دار الشروق .

ثم يوضح الحكمة من تقديم التعليم على التزكية كما جاء في الآية ١٢٩ البقرة ومن تقديم التزكية على التعليم كما جاء في الآية ١٥١ البقرة حيث يقول (وقد تقدم هناك ذكر تقديم الكتاب والحكمة على التزكية وتقدم هنا ذكر التزكية على التعليم والحكمة والنكتة في ذلك أن إبراهيم (ﷺ) لاحظ في دعوته الطريق الطبيعي وهي أن التعليم يكون أولاً ثم تكون التزكية ثمرة له ونتيجة .

وهنا ذكر الترتيب بحسب الوجود والوقوع وذلك أن أول شيء فعله النبي (ﷺ) هو أن دعا الناس إلى الإيمان بما تلا عليهم من آيات الله تعالى ... فأجاب الناس دعوته بالتدريج وكل من آمن به كان يقتدي به في أخلاقه وأعماله ولم تكن هناك أحكام ولا شرائع ثم شرعت الأحكام بالتدريج فالتزكية بالناس بالتأسي به عليه الصلاة والسلام كانت متأخرة عن إقامة الآيات والدلائل على أصول الإيمان ومقدمة على تلقي الشرائع والتفقه في الأحكام(١) .

سادساً : السياسة :

في اللغة هي القيام على الشيء بما يصلحه والسياسة فعل السائس : يقال هو يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها . والولي يسوس رعيته وسوس فلان لفلان امراً أي روضه وذلك في الحديث (كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم) أي تتولى أمورهم كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية(٢) .

وفي الاصطلاح : يعرفها أبو البقاء الكفوي بأنها (استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل وهي من الأنبياء على الخاصة والعامة في ظاهرهم وباطنهم ومن السلاطين والملوك على كل منهم في ظاهرهم لا غير ومن العلماء ورثة الأنبياء على الخاصة في باطنهم لا غير)(٣) وقد ذهب التهانوي إلى هذا التعريف أيضاً وقام بشرحه وإن كنت أرى إن ما نقله التهانوي عن البحر الرائق اشمل من هذا حيث يقول (ورسمت السياسة بأنها القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأموال)(٤) .

---

(١) المرجع السابق ، جـ٤ ، ص٣٣٩ .
(٢) لسان العرب لابن منظور ، جـ٧ ، ص٣٠١ .
(٣) الكليات لأبي البقاء الكفوي ، ص٥١٠ .
(٤) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ، جـ٢ ، ص٣٦٧ .

وقد استخدم فلاسفة الإسلام وعلماؤه كلمة السياسة مرادفة لكلمة التربية فالفارابي يبين في رسالته إن من أنفع الأمور التي يسلكها المرء في استجلاب علم السياسة وغيره من العلوم إن يتأمل أحوال الناس وأعمالهم ومتصرفاتهم وما شهدها وما غاب عنها مما سمعه وتناهى إليه منها وأن يمعن النظر فيها ويميز بين محاسنها ومساؤها وبين النافع والضار لهم منها ثم ليجتهد في التمسك بمحاسنها لينال من منافعها مثل ما نالوا وفي التحرز والاجتناب من مساؤها ليأمن من مضارها ويسلم من غوائلها مثل ما سلموا (١) .

ثم يبين الفارابي أن الإنسان إذا ما اعتقد بتوحيد الله وصفاته ووحدانيته ومعرفة رسوله وانتهج المنهج المستقيم وجد في صدره سعة وفي أحواله استقامة ومن الأشرار سلامة وعند الاختيار حظوة وفي معاشه سداد وعند ذلك ينبغي عليه أن يقوم على سياسة الأحوال بقلب قوي ونية صادقة وصدر واسع وثقة بأن ما يأتيه من ذلك وإن قل يجدي عليه نفعاً يجل(٢) .

ثم يبين الفارابي ما ينبغي على الإنسان أن يستعمله المرء مع الرؤساء والأكفاء والأعداء ومن دونه ثم يتحدث عن سياسة المرء لنفسه وما ينبغي عليه أن يفعله وكيف يروضها ويكبح جماحها ويهذبها ثم يقول في خاتمة رسالته (فهذه أصول وقوانين متى ما استعملها المرء في معاشه وقاس عليها في متصرفات أموره وأسبابه استقامت به أحواله وطابت له أيامه وسلم من كثير الآفات ونال الحظ الجزيل من السعادات)(٣) .

وإذا كان الفارابي قد استخدم لفظ السياسة مرادفاً لكلمة التربية كذلك فعل ابن سينا وذلك عند حديثه على أنواع السياسة وأن أول ما ينبغي للإنسان أن يبدأ به من أصناف السياسة "سياسة نفسه إذ كانت نفسه أقرب الأشياء إليه وأكرمها عليه وأولاها بعنايته وأنه متى أحسن سياسة نفسه لم يع بما فوقها من سياسة المصر (٤) .

---

(١) رسالة أبي نصر الفارابي في السياسة ، ص١٩ ، ضمن مقالات فلسفية لمشاهير فلاسفة العرب (مسلمين ونصارى) ، بقلم لويس شيخوا وآخرين ، نشر دار العرب للبستاني ، ط٣ ، سنة ١٩٨٥ .

(٢) السابق ، ص٢٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص٣١ .

(٤) كتاب السياسة لابن سينا ، ص٦ ضمن مقالات فلسفية لمشاهير فلاسفة العرب (مسلمين ونصارى) .

فابن سينا يبين أهمية إصلاح النفس وتربيتها ويؤكد على أن من أراد إصلاح نفسه لزمه معرفة أسباب الفساد معرفة مستقصاه حتى لا يغادر منه شيئاً لم يأخذ في إصلاحه .

والرئيس ابن سينا إذا كان قد استخدم كلمة سياسة مرادفه لكلمة التربية فإنه يستخدمها أيضاً مرادفة لكلمة رياضة النفس وهذا يؤكد معناها التربوي أيضاً فيقول (وكذلك من دام سياسة نفسه ورياضتها وإصلاح فاسدها لم يجزله أن يبتدئ في ذلك حتى يعرف جميع مساوئ نفسه معرفة محيطة فإنه متى أغفل بعض تلك المساوئ وهو يرى أنه قد عمها بالإصلاح كان كمن يدخل ظاهر الكلم وباطنه مشتمل على الداء) (١) .

كما جاءت الكلمة بمعنى التربية أيضاً لدى الراغب الأصفهاني في حديثه في فضل معرفة الإنسان لنفسه حيث يقول (والسادس أن من عرف نفسه أن يسوسها ومن أحسن أن يسوس نفسه احسن أن يسوس العالم فيصير من خلفاء الله المذكورين في قوله تعالى ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ ومن الملوك المذكورين في قوله تعالى ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً﴾ (٢) .

فالأصفهاني يبين أن الإنسان القادر على أن يسوس نفسه ويربيها بالتحلي بالفضائل وتجنب الرذائل لهو القادر على أن يسوس العالم وأن العاجز عن تربية نفسه كان عن تربية غيره أعجز ، ويبين في موضوع آخر أن الوالي (إذا تزكى وساس الناس بسياسة الله صار ظل الله في الأرض)(٣) كما يبين أن شأن الرعية مع الوالي شأن قوي النفس مع العقل إذا أحسن كل منها سياسة نفسه وجب طاعة الرعية له كما تطيع قوى النفس العقل (٤) .

وهكذا نجد أن كلمة السياسة جاءت بمعنى التربية والرياضة والتزكية وهذا يعني أنها مرادفة لكلمة التربية كما كان مرادفها لها من قبل كلمة الأدب والتزكية .... الخ .

---

(١) المرجع السابق ص٦ .
(٢) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين للراغب الأصفهاني ص١٩ مكتبة الحياة بيروت سنة ١٩٨٣ .
(٣) المرجع السابق ص٤٠ .
(٤) المرجع السابق ص٤٠ .

المطلب الأول

مفهوم التربية لدى الماوردي

تعد القيم من المفاهيم الجوهرية في كافة ميادين الحياة ومناحيها وهي تمس العلاقات الإنسانية بكافة صورها وذلك لأنها ضرورة اجتماعية ولأنها معايير وأهداف لابد أن نجدها في كل مجتمع منظم سواء أكان متأخراً أم متقدماً فهي تتغلغل في الأفراد بشكل اتجاهات ودوافع وتطلعات وتظهر في السلوك الظاهري الشعوري واللاشعوري وفي المواقف التي تتطلب ارتباطاً في الأفراد ، ومجال القيم يشمل كافة جوانب النشاط الإنساني وكل نشاط يقوم به الإنسان يمكن أن تحكم عليه حكماً قيماً ، والقيم تتباين حسب تقسيماتها إلى قيم مادية واجتماعية وأخلاقية وجمالية وروحية ومعرفية) (١) ، وهذا التميز للقيم لا يستدل منه على أنها منفصلة عن بعضها البعض ولكنها تترابط مع بعضها من أجل تحديد أهداف الفرد والمجتمع وتحديد معالم فلسفة الحياة في المجتمع ، ويتعلق موضوع تحديد الأهداف التربوية بنوع القيم التي يقوم عليها .

ومادام الإنسان هو مادة التربية ومحور نشاطها ، ومادام المجتمع هو مجالها المتسع الذي يؤثر ويتأثر بما يقدمه لها وبما تقدمه له ، فإن كل فلسفة للتربية يجب أن تنبع من واقع المجتمع وحسب ظروفه .

وفي ضوء هذه المفاهيم التربوية المعاصرة تأتي أهمية معالجة التربية ماهية وأهدافاً وفق ما قرره وأكد عليه الإمام الماوردي في نتاجه الفكري بصفة عامة وفي كتاب أدب الدنيا والدين بصفة خاصة ، فالتربية كنظام ينبع من المجتمع ومن فلسفة الأمة ، وهي نسق فكري لمفكر تناول قضاياها أو بعض منها ، تتبع من النسق الفكري الكلي الذي يقدمه أو يتبناه .

وعن ماهية التربية ومدلولها فإن الماوردي لم يقدم في حديثه تعريفاً محدداً للتربية يمكن الاعتماد عليه في هذا الصدد ، إلا أنه استخدم كلمتين هما من الجو الفكري العام في عصره تعبران تعبيراً قوياً عن مدلول التربية هما : الأدب والتعليم ، وكلمة أدب تعد من الكلمات المتداولة ليس في عناوين الكتب فقط وإنما

---

(١) (فلسفة التربية) فيليب هـ فنيكس ، ص٨٢٣ – ٨٢٤ بتصرف يسير .

في أحاديث العرب وأشعارهم قبل الإسلام ، ودون استطراد حول أصل الكلمة فإن معانيها في القاموس المحيط : أدبه علمه فتأدب واستأدب ، أما المصباح المنير فيذكر أنه : رياضة النفس ومحاسبة الأخلاق كما أن الأداب تقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل ، وبالإضافة إلى هذا فإن أدبه تأديباً يخرج إلى معنى العقوبة على الإساءة ، والعرب كما أشار البعض قد عرفوا الأدب على أنه الخلق المهذب والطبع القويم والمعاملة الكريمة أما في صدر الإسلام فقد انصرف إلى معنى التعليم والتهذيب ومما يؤيد هذا ما روي من أن علياً قال للرسول (ﷺ) يارسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره فقال رسول الله (ﷺ) : أدبني ربي فأحسن تأديبي ، وربيت في بني سعد .

فالتاديب هنا يعني : التهذيب والتثقيف والتعليم ، ومما يؤيد هذا ما رواه ابن مسعود : أن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته (١) .

وكلمة أدب قد استخدمت لتدل على معان متعددة وأيضاً متجاورة وخاصة في العصر العباسي فقصد بها العلم والثقافة في صدر الإسلام ، ثم ضاق معناها في العصر الأموي ثم عادت لتتسع وتشمل الثقافة العربية عامة حيناً أو الثقافة النوعية المتخصصة والمتعلقة بالعربية حيناً آخر ، وإن كانت في كافة استخداماتها تدل على ما ينبغي للإنسان أن يعرفه ولا يسعه جهله كقاعدة ثقافية وأيضاً وسيلة أساسية لإتقان علوم أخرى تفيد في الدنيا والآخرة .

وإذا كان الأمر كذلك فإن كتاب أدب الدنيا والدين للماوردي وما يحتويه عامة من أداب نجد أنه يشيع في جنباته وعبر صفحاته الدعوة لمكارم الأخلاق ، ويحض على طلب العلم ووجوب التحلي بكل منهما والسير في هذا على هدى القرآن والسنة النبوية ومن الملاحظ أن كلمة تربية هي الكلمة المتداولة والتي ينصرف إليها المعنى الذي يريده الماوردي من كلمة أدب من حيث الاهتمام وبيان أحوال الناس وما به صلاحه وسعادته في الدنيا والآخرة ومن حيث الاهتمام بالتعلم وتعلم العلم والسلوك بمقتضاه والذي هو ترجمة لدعوة الدين .

٧١

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر (من قضايا الأدب الجاهلي) محمود أبو الأنوار ص٧ – ١١ بتصرف – مكتبة الشباب – القاهرة ١٩٧٦م .

وما اشتمل عليه كتاب أدب الدنيا والدين – أيضاً – من أدب التعلم يدل دلالة قاطعة على مسئولية الإنسان الفردية في وجوب أن يتعلم ويمارس حريته في الحصول على ما يرغب ويستطيع من علوم وفنون ومعارف وآداب .

إن كتاب أدب الدنيا والدين وإن قصد به الثقافة العامة والمتعلقة بأمور الدنيا والدين التي ينبغي أن يعرفها الإنسان ليروض بها نفسه ويؤدبها ويهذبها ويحاسبها لتصبح على حال حسنة وبالتالي تفوز بالسعادة في الدنيا ورضوان الله تعالى في الآخرة . كما يمكن أن يصنف ضمن كتب الأدب أو الثقافة العامة بلغة عصرنا ، إلا أنه يمكن القول هنا بأنه مزيج من ثقافة العصر العامة السائدة كما يتجلى فيها حصاد الثقافات الوافدة سواء أكانت فارسية أم هندية أم يونانية إلى غير هذا وكلها متجاورة مع ما هو عربي وإسلامي ، وذلك أنه بالإضافة إلى أقوال وأشعار وأخبار حكماء العرب وشعرائهم المشهورين وأخبار الصحابة والمحدثين والفقهاء والمتصوفة من المسلمين قبل زمان الماوردي وفي زمانه وغيرها من سائر الأقوال يرجح أن سمة كتابه للثقافة العامة والخاصة (١).

وينبغي أن ننبه إلى أن استخدامنا كلمة التأديب بمعنى التربية ليس بخارج عن معنى المصطلح في الجو الإسلامي العام وعند الماوردي وهو ليس نوعاً من لي الذراع للكلمة ففهم معنى كلمة أدب ينبغي أن لا يكون قاصراً على المعنى الضيق للكلمة بل يجب أن يكون واسعاً شاملاً ليشمل التربية في عمومها سواء أكانت تربية عقلية أم أخلاقية أم غير ذلك ، وربما كان هذا هو ما عناه الماوردي، فالأدب عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الأخطاء (٢) وهذا يعني ضرورة تعلم السلوكيات الصحيحة للاحتراز عن السلوكيات الخاطئة ، ويساعدنا على فهم التفريعات لكلمة أدب فهناك أدب البحث ، وأدب القاضي ، فأدب البحث صناعة يستفيد منها الإنسان كيفية المناظرة وشرائطها صيانة له عن الخبط في البحث (٣) ، ومن هذا يمكن القول أن كلمة أدب واسعة تعني وتجمع جميع ألوان التربية وميادينها بما في ذلك التنشئة الاجتماعية .

---

(١)(مدارس التربية في الحضارة الإسلامية) د. حسان محمد حسان ، د. نادية جمال الدين ، ص١٩٥ – ٢٠٢ بتصرف – دار الفكر العربي – ط١ – ١٩٨٤م.

(٢) (التعريفات) للجرجاني ، ص٢٤ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

فالأدب يعني التربية ، والتعليم يعني التربية ، ذلك أن التربية تضم الأدب والتعليم ، والتخلق بالأخلاق الطيبة ، والالتزام بكافة الآداب العامة وكافة الشئون المتعلقة بأدب الدنيا وأدب الدين ، ومن ثم فللوقوف على مدلول التربية لدى الماوردي فإنها تعني :

الأدب والتأديب والتهذيب .

وكذا معرفة وجوب العلم والتعلم .

وكذا ضرورة التنشئة الاجتماعية على مواضعات أمر الجماعة .

وهذه المفاهيم لازمة للصغار وللكبار ، لينشأ الأفراد على الآداب الاجتماعية العامة كي يتم التفاعل الاجتماعي بين الإنسان والبناء الاجتماعي المحيط به خلصة وأن الإطار الاجتماعي المحيط بالفرد ويعيش فيه هو الذي يشكل شخصيته ومن ثم نشأة الأفراد على الآداب ، وتصورات المجتمع أمر واجب لا انفكاك عنه ولابد منه .

وهذا ما يدفعنا لبيان المحاور التالية في فكر الماوردي التربوي :

الأول : الإنسان هو المحور الذي تدور حوله التربية بل هو مادتها الخام ، وإذا كانت طبيعته الفطرية مجبولة على سمات محددة بمعنى أنه يخرج للحياة مزوداً بقابليته للتأدب والتعلم والتهذيب والتنشئة فإنه لا يمكن بحال من الأحوال إهمال ذلك ، يعني إهمال أو إغفال هذه القابلية فالإنسان إذن قابل للتعلم واكتساب أنماط معينة من السلوك بالتربية في ظل مواضعات المجتمع وآدابه وفي ظل المؤثرات المختلفة المحيطة به .

إذ من الممكن تشكيل وتوجيه قوى الإنسان وطاقته بصورة تحقق أهداف التربية في تصورها للإنسان وشكله ومواضعاته أو المثل الأعلى للمجتمع ، فالإنسان يربى على أساس هذه المواضعات وأيضاً مواضعات وآداب الجماعة وتصورها وفكرها فلكل قوم مواضعه ، والإنسان قد جبل على شيم مهملة وأخلاق مرسلة منها ما هو محمود ومنها ما هو مذموم ، وفي كلتا الحالتين فإنه لا يمكن إغفال تربية الإنسان والاكتفاء بالمحمود منها عن التربية والتهذيب .

وهذه التربية لا تنال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع بل لابد من التجربة والمعاناة والتأديب والمعاطاة حتى أنبياء الله تعالى ورسله – عليهم السلام – لا

يستغنون عن هذا ، إذ أنهم لو استغنوا عن هذا لكانوا مستغنين ولكنهم غير مستغنيين ، فلقد تؤدبوا بأدب الله ومن ثم كان مفروضاً أن يربى الإنسان ويؤدب ويهذب .

وفي هذا الشأن يحدثنا الماوردي في كتابه أدب الدنيا والدين بضرورة أدب النفس وتأديبها فيقول : (اعلم أن النفس مجبولة على شيم مهملة ، وأخلاق مرسلة ، لا يستغنى محمودها عن التأديب ، ولا يكتفي بالمرضى منها عن التهذيب لأن لمحمودها أضداداً مقابلة ، يسعدها هوى مطاع ، وشهوة غالبة ، فإن أغفل تأديبها تفويضاً إلى العقل أو توكلاً على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع ، أعدمه التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين ، فصار من الآداب عاطلاً ، وفي صورة الجهل داخلاً ، لأن الأدب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة ، ولكل قوم مواضعه ، وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل ، ولا بالانقياد للطبع حتى يُكتسب بالتجربة والمحاناة ، ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيماً ، وزكي الطبع إليه مسلماً ولو كان العقل مغنياً عن الأدب لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين وبعقولهم مكتفين) (١) .

الثاني : نفس الإنسان وطبيعتها في حالتها الأساسية لا يستغنى محمودها عن التأديب ، ولا يكتفي بالمرضى منها عن التهذيب لأن محمودها أضداداً مقابلة ، يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة ، وهذا يعني ويدل دلالة قاطعة على أن طبيعة الإنسان تتأثر بما يحيط بها ، وتوجه إليه ، ومن ثم تكون التربية بهذا المدلول لدى الماوردي تهذيب النفس وتأديبها وتوجيهها نحو الخير ، وهذا يأتي بتوجيه النفس إلى رشدها إذ أن صلاح الإنسان يكون بنفس مطيعة إلى رشدها منتهية عن غيها.

وفي هذا يحدثنا الماوردي عن ما يصلح به حال الإنسان في الدنيا فيقول : وأما ما يصلح به حال الإنسان فيها فثلاثة أشياء ، وهي قواعد أمره ، ونظام حاله وهي نفس مطيعة إلى رشدها منتهية من غيها وألفة جامعة تتعطف القلوب عليها ، ويندفع المكروه بها ، ومادة كافية تسكن الإنسان إليها ويستقيم أوده بها (٢) .

---

(١) (أدب الدنيا والدين) للماوردي ص٢٢٦ .
(٢) (أدب الدنيا والدين) للماوردي ص١٤٨ .

وهذا التأديب والتهذيب والتربية للإنسان في إطار البناء الاجتماعي الذي يعيش فيه ذلك أن الفرد يعبر عن نشاطه وأفكاره وسلوكه عن طريق أنواع الاتصال بالرموز مع الآخرين وهذا في حد ذاته تفاعل اجتماعي يؤثر في نوعيات الاستجابة التي يتمثلها الإنسان .

والمتأمل في فكر الماوردي التربوي سيلمس بجلاء أن الماوردي قد أكد وقرر في كتابه أدب الدنيا بأن التأديب لازم للأب وللإنسان نفسه فيقول : والتأديب يلزم من وجهين :

أحدهما : ما لزم الوالد لولده في صغره .

والثاني : ما لزم الإنسان في نفسه عند نشأته وكبره .

فأما التأديب اللازم للأب فهو أن يأخذ ولده بمبادئ الآداب ليأنس بها وينشأ عليها فيسهل عليه قبولها عند الكبر لاستئناسه بمبادئها في الصغر لأن نشأة الصغير على الشيء تجعله متطبعاً به ومن أغفل في الصغر كان تأديبه في الكبر عسيرا.

واما الأدب اللازم للإنسان عند نشأته وكبره فأدبان : أدب مواضعة واصطلاح وأدب رياضة واستصلاح .... (١) .

الثالث : إن طبيعة التربية لدى الماوردي مُقامة على قاعدة فردية اجتماعية تشمل كافة أفراد المجتمع وجميع تنظيماته وهي تضم :

أ- مرحلة الطفولة والصغار وهي مهمة لهم يقوم بها الأب أو الولي أو المعلم .

ب- مرحلة الكبار وهي مهمة إلا أنه يتولى أمر نفسه وإن كانت التأثيرات المختلفة لم تنته ولم تتوقف .

الرابع : إن التربية تتبع من المجتمع ومن فلسفة الأمة ، وهي كنسق فكري لأي مفكر من رواد المفكرين تتبع من النسق الفكري الكلي الذي يقدمه لمجتمعه أو يتبناه لأمته .

---

(١) المرجع السابق ص٢٢٨ .

والماوردي قرر عدة أمور تعتبر أصولاً بالنسبة للتربية وتحديداتها في كافة ميادين الحياة العامة ، وتتمثل هذه فيما يلي :

أولاً : قرر الماوردي في نتاجه الفكري العام ولاسيما في كتابه (أدب الدنيا والدين أن التكليف أمر ضروري ومهم فهو رسالة الإنسان في هذه الحياة على وجه الرض ، ولا يقتصر التكليف على العبادات ولكنه يشمل كافة التصورات الفكرية عن الكون والحياة والإنسان ، أي أن نظرة الإسلام نظرة كلية وليست جزئية محصورة في مجال الحياة دون اهتمام بالإنسان ، وعلاقة الإنسان بالتكاليف المختلفة وقدرته على الإتيان بها .

ثانياً : أن التكاليف لا يقصد منه العنت والمشقة بل هو نعمة من نعم الله تعالى على الإنسان ، ومرتبط بالله الخالق جل وعلا باعتباره المنعم على الإنسان بنعمة التكليف ومن ثم وجب على الإنسان أن يوطد صلته بخالقه ويقوم بمهمة الخلافة عن الله تعالى في كونه ليقوم بأداء الشكر على هذه النعمة الإلهية .

ثالثاً : والهدف العام من هذه النعمة (نعمة التكليف) هو تحقيق النفع العام وصلاح الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة ، سواء كان فرداً أو مجموعا ، ثم الوصول إلى رضا الله تعالى ، والماوردي يهدف من نسقه الفكري عامة إلى إقامة التوازن بين الفرد والجماعة .

رابعاً : يقيم الماوردي بناء التكليف على أساس قاعدتين هما : القاعدة الفردية النفسية ، والقاعدة الفردية الاجتماعية ويأتي نسقه الفكري على هذا الأساس ، والدعامة الأساسية في ترسيخ النسق الفكري هي العقيدة الإلهية فعليها ينبني سلوك الإنسان على توطد الإنسان بخالقه وبالآخرين من أفراد مجتمعه وأمته فليس الإيمان بالتمني والأماني كما أنه ليس مجرد تصور فكري نظري ، إنما هو تطبيق عملي ، وعلاقة فعالة ولها فاعلية في الأخذ والعطاء وشد وجذب ورهبة ورغبة في كافة حالات التكليف الإلهي .

خامساً : ولما كان التكليف الإلهي هو رسالة الإنسان ومهمته في الحياة ، فإن الإنسان لابد له من تعلم وتربية ، إذ من أبرز سمات التشريع الإسلامي وأهم معطياته توسع القاعدة العقلية والفكرية ، ومن ثم كان الحض على طالب العلم ووجوب التعلم ليكون أساس السلوك الإنساني ، ومن هنا يمكن القول إن التربية والتعليم هما أداة تحقيق الأهلية اللازمة للتكليف الإلهي .

سادساً : قرر الماوردي وأكد في نتاجه الفكري العام : أن طبيعة الإنسان قابلة للتكليف ، ومخلوقة ومعدة من أجل هذا ، ولأن التكليف لا يمكن أن يكون

بغير تعليم وتربية فهذه الطبيعة الإنسانية قابلة للتعليم والتربية ، ولا يمكن أن تكون صحيحة إلا إذا توسطت بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة فالدنيا دار تكليف وابتلاء وعمل ، والآخرة هي دار القرار والجزاء ، وواجب الإنسان أن يصرف همه لإصلاح دنياه ويعطيها حظها من عنايته وجهده لأن هذا من طبيعته ولأنه لا غنى عن التزود منها لآخرته ولا له بد من سد الخلة فيها عند حاجته فطبيعته مؤهلة ومجبولة لمهمة الخلافة عن الله تعالى في كونه .

سابعاً : ولأن التكليف لا يتم إلا بعلم ومعرفة ، فقد عني الماوردي وأكد على أهمية المعرفة باعتبارها ممكنة ، وضرورة العلم والتعلم ، إذ لا يمكن للإنسان أن يكون عالماً بالتكاليف علماً حقيقياً إلا بالتعلم ليتم أمر التكليف بالعمل بهذا العلم ، فالأمر عنده ليس مجرد تعلم أو حرص ومحبة للعلم وإنما يمتد إلى وجوب العمل بالعلم .

ثامناً: ولما كان المجتمع هو إطار وبيئة التكاليف فلذا وجدناه اهتم بالتربية الاجتماعية في نسقه الفكري ، وبين الأصول والقواعد الاجتماعية والفردية في محيطها الملائم والمعنوي والتي تؤكد في النهاية إيجاد مجتمع قويم صالح ليكون حاضناً سليماً للتعليم والتربية .

تاسعاً : والأخلاق سياج هام لحياة الفرد والمجتمع وقد أبرز الماوردي أهمية الأخلاق وضرورة تربية وتدريب الإنسان على الأخلاق الفاضلة والقيم الأخلاقية الإسلامية النبيلة وتطهير النفس من رذائلها .

فهذه وغيرها أصول تربوية عامة تجلت في رؤى الماوردي وفي فكره العام لتتجلى واضحة في بيان أهمية التربية للإنسان وهي ضرورة له فهي :

أ - تشمل الإنسان ككل من حيث هو عقل ونفس وجسد وقلب .
ب - أنها تعد الإنسان للعمل النافع في الدنيا والآخرة .
ج - أنها تعد الإنسان ليفيد نفسه ومجتمعه وليقوم بمهمة الخلافة عن الله تعالى في كونه .
د - أنها تنشئ الإنسان تنشئة عقلية سليمة وتهيؤه للاختيار العقلي الصحيح .
ه - أنها تهتم بالإنسان خلقياً واجتماعياً ووجدانياً وجسمياً ومهنياً .
و - أنها تمتد لتشمل مراحل عمر الإنسان كله .
ز - فالتربية لدى الماوردي تهتم بالإنسان وتحمل أعباء التكاليف الإلهية وهي شاملة ومتكاملة تضم جميع ميادين الحياة مراعية الفطرة الإنسانية التي فطره الله تعالى عليها .

المطلب الثاني

أهم ملامح الفكر التربوي وميدانه في فكر الماوردي

إن فلسفة التربة الإسلامية بما تبنيه من أهداف وقيم ومناهج وطرق للتربية الإسلامية هي تلك الفلسفة التربوية التي تصلح للإنسان المسلم ، ولبناء الشخصية المسلمة .

والتربية الإسلامية وهي ترمي لبناء وتنمية الشخصية الإسلامية تأخذ بكل حاجات الإنسان حسب مراحل نموه ، ووفق قدراته ومواهبه واستعداداته ، فالإنسان في طفولته تغلبه حاجات الجسد بينما تقل مطالب العقل ، ويختلف الطفل عن الإنسان الناضج في أنه ابن ساعته فهو يسعد إذا كان في حاضره ما يسعده ويبكي إذا كان في حاضـــره ما يؤلمه ، وليس له فيما قبل الحاضـــر أو بعده تفكير (١) .

والإنسان الناضج في الإسلام مخلوق مسئول أمام الله تعالى بحكم الاستخلاف الذي كرمه به ربه يوم خلقه واستخلفه وهو قادر على القيام بمهام هذا الاستخلاف بحكم ما منح من عقل ، فهو بالجسد قادر على أن يشيد ويعمر في هذه الحياة الدنيا ويستمتع بما يشيد ويعمر ، وهو بالروح قادر على أن يشيد وفق الإرادة العليا التي يرتبط بها من خلال ما زوده الله به من طاقة روحية ، وهو قادر بالعقل على أن يختار فيحسن الاختيار أو يسيئه ويستحق بالتالي أن يحاسب على حسن اختياره وإساءته (٢) .

والمتأمل في التراث الإسلامي ولا سيما التربوي منه ما يؤكد شغل المفكرين من العلماء والرواد في ميدان العمل التربوي ومجاله ، واهتمامهم ببيان أهم الميادين التربوية ومجال اهتمامها ، ومن هؤلاء الذين عنى بإجلاء أوجه الأنشطة التربوية في العملية التربوية الإمام الماوردي ، ويمكننا ببيان هذه الميادين من خلال فكره العام ونتاجه ولا سيما من خلال كتابه أدب الدنيا والدين في المناحي الآتية :

---

(١) (أنبياء الله والحياة المعاصرة) د. عبد الغني عبود ، ط١ ، دار الفكر العربي ١٩٧٨م .

(٢) (فلسفة التربية الإسلامية) د. عبد الجواد السيد بكر ، ص١٨٠ .

الأولى : التربية الروحية في فكر الماوردي .
الثانية : التربية العقلية في فكر الماوردي .
الثالثة : التربية الجسمية في فكر الماوردي .
الرابعة : التربية الخلقية في فكر الماوردي .
الخامسة : التربية الاجتماعية في فكر الماوردي .
السادسة : التربية العلمية والعملية في فكر الماوردي .

ولنا مع كل ميدان من هذه الميادين وقفة :

أولاً : التربية الروحية في فكر الماوردي :

كما عني الإمام الماوردي في نتاجه الفكري عامة وكتابه (أدب الدنيا والدين) خاصة بأهمية التربية الروحية للإنسان ، إذ ترتبط الروح بالهدف الديني والإنساني الذي يعتبر مصدر كل معنى للحياة ، ووراء اعتقاد الفرد تكمن القيم التي يدافع عنها عن عاطفة ، والأهداف التي يكابد بإخلاص لتحقيقها .

والتربة الروحية (العقائدية) تعلم الإنسان أن الإيمان بالله تعالى هو الذي يحرره من ربقة العبودية للمادة أو مطالب الذات الإنسانية الجسدية أو العقلية ، وهذا الإيمان هو الأساس لأنه تربية صحيحة (١) .

والتربية الروحية تعمل على تثبيت العقيدة الدينية ، وتربية الضمير ، وتنمية الوازع الديني وممارسة النشاط الروحي ، والتهذيب الخلقي ، وممارسة عنية للشرائع وشعائر الدين والفضائل الأخلاقية وممارستها ، والبعد عن التعصب والجمود والاتكالية والتزمت ، والتكامل بين الإيمان والعمل الصالح والإخلاص ، وأداء الواجب والإنتاج المثمر وإنكار الذات (٢) .

والإسلام الذي نستمد منه أسس وأصول التربية الروحية يقوم على الإيمان بالله تعالى وبسائر الأنبياء والرسل ما علمنا منهم وما لم نعلم ، فهو الدين الشامل والجامع لدعوات الأنبياء والرسل ومثلها وقيمها .

---

(١)(نحو تربية مؤمنة) د. محمد فاضل الجمالي ص٣٧ .
(٢) (في التربية المعاصرة) د. إبراهيم عصمت مطاوع ، ص١٥١ ، دار الفكر العربي ، ط١ ، ١٩٧٦م .